

خطبة بعنوان: منزلة العلم وأثره في نهضة الأمة

بتاريخ: ١٧ ذو الحجة ١٤٣٨ هـ - ٨ سبتمبر ٢٠١٧ م

عناصر الخطبة:

العنصر الأول: منزلة العلم والحث عليه في الإسلام

العنصر الثاني: صور ونماذج مشرقة في حرص السلف الصالح على طلب العلم

العنصر الثالث: أثر العلم في نهضة الأمة

العنصر الرابع: ظاهرة الغش في التعليم وأثرها على المجتمع

المقدمة: أما بعد:

العنصر الأول: منزلة العلم والحث عليه في الإسلام

عباد الله: بعد أيام قلائل نستقبل عاماً دراسياً جديداً ؛ وبهذه المناسبة نقف مع حضراتكم حول: (منزلة العلم وأثره في نهضة الأمة).
فقد اهتم الإسلام بقيمة العلم أيما اهتمام، ولقد بلغت عناية الله - عز وجل - بنا لرفع الجهل عنا أن كان أول ما نزل من الوحي على نبينا أعظم كلمة هبط بها جبريل هي قوله تعالى: { أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } (العلق: ١) ؛ وأمر الله عز وجل بالقراءة والعلم في أول آية نزلت من القرآن دليل واضح على أهمية العلم في تكوين عقل الإنسان وفي رفعه إلى المكانة السامية، فلا يستوي عند الله الذي يعلم والذي لا يعلم، فأهل العلم لهم مقام عظيم في شريعتنا الغراء، فهم من ورثة الأنبياء والمرسلين، يقول الله تبارك وتعالى: { هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } (الزمر: ٩) ، فلا يستوي الذي يعلم والذي لا يعلم، كما لا يستوي الحي والميت، والسميع والأصم، والبصير والأعمى، فالعلم نور يهتدي به صاحبه إلى الطريق السوي، ويخرج به من الظلمات إلى النور.

ويرفع الله الذي يطلب العلم والذي يعمل به كما يشاء، قال تعالى: { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } (المجادلة: ١١) أي يرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين بفضل علمهم وسابقتهم درجات أي على من سواهم في الجنة. قال القرطبي: "أي في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم" وقال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية، والمعنى: أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم (درجات) أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به. "أ.هـ.
ولشرف العلم أباح الله لنا أكل الصيد الذي صاده الكلب المعلم، وإذا صاده كلب غير معلم لا يؤكل: { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ } [المائدة: ٤] فلولا فضل العلم لكان فضل صيد الكلب المعلم والجاهل سواء، وقد علمه كيف يصيد، وكيف يمسك لصاحبه، هذا في عالم الكلاب، رفعه الله درجة عن أقرانه بالعلم فما بالك بمن تعلم الكتاب والسنة؟!

ويبلغ من فضل العلم أنه يرفع قدر أناس ليس لهم حسب ولا نسب فوق كثير من الأكابر؛ فعن عامر بن واثلة أبي الطفيل، أن نافع بن عبد الحارث، لقي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ عُمَرُ: مَنِ اسْتَحْلَفْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ قَالَ: اسْتَحْلَفْتُ عَلَيْهِمْ ابْنَ أَبْرِي، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْرِي؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ عُمَرُ: فَاسْتَحْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِيءٌ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَاضٍ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ. (أحمد والبيهقي في الشعب والسنن الكبرى وابن ماجه بسند حسن).

وقد لعن الرسول - صلى الله عليه وسلم - الدنيا بمن فيها إلا من انتسب لشرف العلم علماً كان أو متعلماً، فعن أبي هريرة، قال: سِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَقُولُ: "الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا." (الطبراني وابن ماجه والترمذي وحسنه)، وكما قيل: كن عالماً أو متعلماً ولا تكن الثالث فتهلك.

عباد الله: ما هو أفضل من أن يستغفر لك الحوت في البحر والدواب وحتى النمل تستغفر لطالب العلم؟ ما هو أفضل من أن تضع الملائكة أجنحتها لك إذا سلكت سبيلاً في طلب العلم سواء كان في درس تذهب إليه أو في كتاب تشتريه لتفتحه وتقرأ فيه؟ أي فضل عظيم هو ذاك وقره الله عز وجل لطلبة العلم الشرعي الذين يتعلمون الكتاب والسنة، والأحاديث في ذلك كثيرة!!

فَعَن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ؛ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ؛ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ؛ وَفَضَّلَ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ؛ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ". (أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه بسند حسن)

ومع أن الإسلام حرم الحسد إلا أن الشارع أباحه في مجال العلم، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها" (متفق عليه)، وغير ذلك من الأحاديث التي لا يتسع المقام لذكرها وأنت بما خبير.

أيها المسلمون: إن الله لم يقصر الأجر على العلماء في حياتهم؛ بل امتد الأجر بعد موتهم وإلى قيام الساعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ" (الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح)، قلت: الإمام البخاري - مثلا - مات من قرون، ومع ذلك عداؤ الحسنات يعُدُّ له إلى قيام الساعة، فمن نحن بجانب البخاري!! ويحضرني قول الإمام الشافعي رحمه الله:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم.....وعاش قوم وهم في الناس أموات

نعم يا إمامنا الشافعي، فكل من يطعن أو يشكك في هؤلاء الأعلام فهو ميت حقيقة لا حكماً، بل لا يستحق الحياة. وما أجمل قول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم.....على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه.....والجاهلون لأهل العلم أعداء

ففر بعلم تعش حياً به أبدا.....الناس موتى وأهل العلم أحياء

أحبتني في الله: ولأهمية العلم نجد أنه صلى الله عليه وسلم جعل فداء كل أسير من أسرى بدر ممن يحسنون فن القراءة والكتابة، أن يعلم عشرة من أبناء الصحابة، فعن ابن عباس قال: "كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِدَاءٌ؛ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِدَاءَهُمْ أَنْ يُعَلِّمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ". (أحمد والبيهقي في السنن الكبرى والحاكم وصححه).

ولم يقتصر اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالحث على تعليم اللغة العربية فحسب؛ بل أمر بتعلم اللغات الأخرى؛ وثبت أنه أمر زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية ليتولى أعمال الترجمة والرد على الرسائل، وروي أنه تعلم بأمر منه صلى الله عليه وسلم العبرية والفارسية والرومية وغيرها، فعن زيد بن ثابت قال: "أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودٍ؛ قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي؛ قَالَ فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ؛ قَالَ: فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودٍ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ؛ وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ". (أحمد وأبو داود والحاكم والترمذي وحسنه)، فأصبح الفتى زيد بن ثابت ترجمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصبحت اللغة سلاحاً له يدافع به عن الإسلام والمسلمين، وكما قيل: (من تعلم لغة قوم أمن مكرهم).

ولم تقتصر عنايته صلى الله عليه وسلم بتعليم هذه الفنون والعلوم للرجال فحسب، إنما اعتنى أيضا بتعليم النساء العلم والكتابة. فعَنْ الشَّفَاءِ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ لِي: " أَلَا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ زُفْيَةَ النَّمْلَةَ كَمَا عَلَّمْتِيهَا الْكِتَابَةَ ". (أحمد والنسائي أبوداود بسند صحيح).

وجملة القول: فإن ما تقدم هو قليل من كثير ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عنايته بالمسألة العلمية؛ تعلمنا وتعليمنا؛ أقوالا وأعمالا؛ مما يبرز اهتمامه الفائق بولاية العلم والتعليم.

العنصر الثاني: صور ونماذج مشرقة في حرص السلف الصالح على طلب العلم

عباد الله: أسوق لكم صورا ونماذج مشرقة من حرص السلف الصالح على طلب العلم، وسأترك لكم التعليق والتعقيب عليها، لتقارنوا بين حالهم والإمكانات والأدوات الكتابية التي عندهم وبين ما نحن فيه من تقدم علمي وتكنولوجي!!
قيل لبعضهم: بما أدركت هذا العلم؟ قال: بالمصباح والجلوس إلى الصباح.

ورئي مع الإمام أحمد العالم الجليل محبرة وقلم فقيل له: أنت إمام المسلمين ولا زلت تحمل المحبرة وتكتب؟! فقال الإمام أحمد: "مع المحبرة إلى المقبرة."

وقيل للشافعي: "كيف حرصك علي العلم؟ قال: حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال. فقيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره"

وقيل لرجلٍ: من يؤنسك؟ فضرب بيده إلى الكتب، وقال: هذه؛ فقيل: من الناس؟ فقال: الذين فيها."

وليس هذا فحسب؛ بل إن ساعات الأكل لقوام حياتهم ومعاشهم كانت ثقيلة عليهم، فقد سألوا الخليل بن أحمد الفراهيدي - رحمه الله - : ما هي أثقل الساعات عليك؟ قال: ساعة أكل فيها.

وكان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له في ذلك؟ فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية «كتاب المجالسة وجواهر العلم»

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري يقول: "أثقل الساعات عليّ ساعة أكل فيها." فالله أكبر ما أشد الفناء في العلم عنده؟! وما أوقد الغيرة على الوقت لديه؟!!

قلت متعجبا: أثقل ساعات عليه ساعة الأكل؛ مع أنه مباح وواجب لقوام الحياة وحفظ النفس؛ وما يتوصل به إلى الواجب فهو واجب، فكيف حالنا ونحن نُضَيِّعُ أوقاتنا في الفراغ والحرام وأمام المسلسلات والأفلام وعلى القهواوي والطرقات، وعلى النت والمعاكسات!!!

أعود إلى سلفنا الصالح فأقول: كان عبيد بن يعيش يقول: "أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل، كانت أختي تلقمني وأنا أكتب الحديث"

وعن ابن أبي حاتم صاحب الجرح والتعديل يقول: "كنا في مصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقعة، كل نهارنا مقسم لمحالس الشيوخ وبالليل النسخ والمقابلة، فأتينا يوما أنا ورفيق لي شيخا، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا فاشتريناها فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس فلم يمكننا إصلاح هذه السمكة ومضيها إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى على السمكة ثلاثة أيام وكادت أن تتغير فأكلناها نيئة، لم يكن لنا فراغ أن نشوي السمك. ثم قال: "إن العلم لا يستطيع براحة الجسد" (سير أعلام النبلاء)

وعن أبي الوفاء ابن عقيل يتحدث عن نفسه فيقول: "أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلتي، حتى أختار سف الكعك وتحسيه مع الماء على الخبز؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ! توفراً على مطالعة أو تسطير فائدة لم أدركها فيه!!"

وقال الشيخ فخر الدين: "والله إني أتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإنّ الوقت والزمان عزيز"

قال ابن كثير رحمه الله: "فهؤلاء ليس لهم علم إلا بالدنيا، وأكسابها، وشؤونها، وما فيها، فهم حذاق أدكياء في تحصيلها، ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عن أمور الدين، وما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له، ولا فكرة".

وقال الحسن البصري: "والله ليلبغن أحدكم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي؛ فكيف تنهض الأمة - في جميع مجالاتها - بأمثال هؤلاء!!؟"

إن الميراث الذي خلفه الرسول - صلى الله عليه وسلم - للأمة هو العلم؛ فعن أبي هريرة، أنه مر بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: "يا أهل السوق، ما أعجزكم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: "ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقسّم، وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه!" قالوا: "وأين هو؟ قال: "في المسجد فخرجوا سراعاً إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: "ما لكم؟" قالوا: "يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد، فدخلنا، فلم نر فيه شيئاً يُقسّم، فقال لهم أبو هريرة: "أما رأيتم في المسجد أحداً؟" قالوا: "بلى، رأينا قوماً يُصلون، وقوماً يقرءون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: "ويحكم، فذاك ميراث محمد صلى الله عليه وسلم" (الطبراني وقال الهيثمي في المجمع: إسناده حسن).

أحبتني في الله: ومن عومل النهوض بالأمة في المجال العلمي أن نهتم بالمعلم والمربي وأن نشكر جهوده، ونؤدي إليه بعضاً من حقه، وأن نعرف له قدره واحترامه وفضله.

إِنَّ الْمَعْلَمَ وَالطَّيِّبَ كِلَيْهِمَا لَا يَنْصَحَانِ إِذَا هُمَا لَمْ يُكْرَمَا

فَاصْبِرْ لِدَائِكَ إِنْ أَهَنْتَ طَبِيبَهُ وَاصْبِرْ لِحَبْلِكَ إِنْ جَفَوْتَ مُعَلِّمًا

إن نهضة الأمة منوط بتربية أجيال على علم وتحمل المسؤولية؛ وما اختلت موازين الأمة، وفسد أبنائها إلا حينما ضاع الأبناء بين أب مفرط لا يعلم عن حال أبنائه، ولا في أي مرحلة يدرسون، ولا مع من يذهبون ويجالسون، ولا عن مستواهم التحصيلي في الدراسة - وبين مدرس خان الأمانة، وتهاون في واجبه، ولم يدرك مسؤوليته؛ فدور الأسرة عظيم في غرس هذه القيم في نفوس أبنائها فهم مسئولون عنهم يوم القيامة؛ وبين ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْحَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" (متفق عليه) وقال أيضاً: "إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرَعَاهُ، أَحْفَظَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ" (الطبراني والبيهقي والنسائي وابن حبان)؛ يقول الإمام الغزالي رحمه الله في رسالته أنجع الرسائل: «الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهر ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه؛ نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة أبواه، وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم؛ شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له». فأولادكم وأمانته في أيديكم وستسألون عنهم فماذا أنتم قائلون!!!

العنصر الرابع: ظاهرة الغش في التعليم وأثرها على المجتمع

عباد الله: إن الغش ظاهرة خطيرة وسلوك مشين، والغش له صور متعددة، وأشكال متنوعة، ابتداء من غش الحاكم لرعيته، ومرورا بغش الأب لأهل بيته، وغش الخادم في عمله؛ و انتهاء بالغش في التعليم والامتحانات.

وحديثي سوف يقتصر على الغش في الامتحانات، والذي أصبح يشكو كثير من المدرسين والتربويين من انتشاره وفسهوه؛ وهذا حق، فإن ظاهرة الغش بدأت تأخذ في الانتشار، ليس على مستوى المراحل الابتدائية فحسب، بل تجاوزتها إلى الثانوية والجامعة والدراسات العليا،

